من تراب الطريق (٦٤٥)

# عواطف الإناث (*)

## (١)

فى عواطف إناث الآدميين مستويات مختلفة فى عمقها اختلافًا بينًا .. منها ما يمكن عادة إخضاعه ـ لدى الإنسان السليم ـ لنداء الدين أو الضمير أو الخلق أو الآداب أو اللياقات أو حكم المكانة والمقام والطبقة والأصل والأسرة والوسط .. ومنها ما لا سبيل للإنسان السليم إلى السيطرة عليه وإسكاته أو تجاهله .. لأنه عميق جدًّا .. ويبدو أن هذه الضوابط كلها لا تصل إليه متى أثير ؛ لأنه ليس من المألوف إثارته لدى صاحبه فى الأحوال العادية .. فهو ليس وليد الخفة أو الطيش أو الفساد أو الإفساد أو عدم المبالاة أو الجراءة أو القحة ؛ وليس وليد تصدع أو خلل فى العقائد أو المبادئ أو المثل.

وعمق هذا المستوى العاطفى الشديد عمق غريزى كونى ، فيما يبدو .. ليس مدينا بوجوده لترقى الآدمى وتطوره ونظمه وأعرافه وتعاليمه .. ومن هنا كانت إثارته قوية الآثار إلى درجة هائلة ؛ لا قبل لمن تعرضت لها بالانتصار عليها مهما بلغت مقاومتها الواعية من الجد والإصرار والعناد . وربما كانت هذه المنطقة شديدة العمق وثيقة الارتباط والاتصال ببقاء النوع والشوق الأنثوى الدافق غير الواعى أو القابل للوعى ـ إلى مجىء المولود على أجمل ما تتصوره الأم ؛ دون حساب أو التفات إلى ما بناه المجتمع البشرى من الأصول والأنظمة والالتزامات التى ألزم بها أفراده إناثًا وذكورًا .

---

(*) المال فى ١٧ /٤/٢٠١٢

وقد فطن البشر من قديم الزمان إلى تلك الظاهرة فى الإناث ، ورأينا تناولها فى الأخبار والآداب ، وفى الكتب السماوية أيضًا .. ففى الأخبار الإغريقية القديمة أن فيدرا زوجة ثيزيوس ملك أثينا ، أغرمت بابنه هيوليتوس ، وانتهزت فرصة خروج زوجها إلى الحرب ، فراودت ابنه ، إلاّ أنه رفضها .. ولم تستطع احتمال صده وخيبة غرامها ، فقررت الانتحار ، ولكنها أبت أن تفارق الدنيا دون أن تنتقم ممن رفض غرامها ، فتركت رقعة لأبيه الملك توغر صدره عليه بأنه اعتدى عليها .. فلما عاد زوجها وقرأ الرقعة ، استدعى على ابنه آلهة البحر ونفاه ، فسخرت هذه وحشًا ـ كما تقول الأسطورة ـ اعترض مركبه فاصطدمت بصخرة ، وقتل هيوليتوس لقاء صده لفيدرا الآثمة التى أغرمت به حبًا ، وطاش صوابها برفضه . وقد صور يوربيدوس وقائع هذه المأساة فى تراجيديا «هيوليتوس» فى عام ٤٢٨ قبل الميلاد ، وأعاد راسين تصويرها فى تراجيديا " فيدرا " ـ فى القرن السابع الميلادى ( ١٦٧٧ م ) .

وفى مصر تعرض يوسف عليه السلام لمثل ما تعرض له هيوليتوس فى القصة الإغريقية ، فراودته امرأة العزيز ، وروى العهد القديم فى الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين تفاصيل هذه المراودة وامتناع يوسف عليه السلام .. وجاء فى القرآن المجيد ، رواية لهذه القصة :

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ

مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ »
( يوسف ٣٠ ـ ٣٥ )

وهذه الآيات القرآنية غاية فى التنبيه إلى المستويات مختلفة العمق فى عواطف الإناث ، وفى بيان أنه فى المستوى العادى المألوف ؛ قد توجد الميول والاشتهاءات الطارئة الخالية من الرزانة والاتزان ؛ كما قد توجد الاتجاهات المبتسرة المستخفة ومعها ـ من جانب الأخريات ـ الأحاديث والشائعات وألوان المكر والثرثرة الملازمة لترفهن ولعبهن وعبثهن ؛ وأنهن حين يصدمن بمشاهدة المستوى العاطفى العميق جدًّا يعرفنه ويسلمن به وينسين العبث والثرثرة والتأله والملامة !

* * *

من تراب الطريق (٦٤٦)

# عواطف الإناث (*)

## (٢)

اعتاد الآدميون من أقدم الأزمنة على ألا يلتفتوا فى أنظمتهم وتقاليدهم وأعرافهم إلى تلك المستويات العميقة لدى النساء ؛ لندرة ما تثيرها فى سير الحياة العادى ، وغلبة اشتغال النساء بالتزين والتجمل واتخاذ أسباب الزينة وإبداء المحاسن لاصطياد الموسر لتوفير الترف أو شىء من الحياة المترفة التى تتيح فرص ذلك .. بلا كثير اهتمام بسن الرجل أو حظه من الجمال البدنى والخلقى . وأضافت التقاليد فى مجتمعات كثيرة حق القرابة من الذكور فى قران الإناث وتقديمهم على الغرباء أيًّا كانت مزايا هؤلاء .

واعتاد عموم الإناث على تلك السنن لآجال وعصور طويلة جدًّا .. حتى كاد جنسهن يفقد الانتباه كلية إلى أعماقهن .. تفضيلاً وإيثارًا للمظهر والمشاهَد والمشهود الذى يستوقف النظر ويسترعى الانتباه والإعجاب . وما زال ذلك غالبًا فى أيامنا ومجتمعاتنا ـ برغم شيوع تعليم الإناث كالذكور ومشاركتهن لهم فى كافة الأعمال والمهن والفنون والحرف والدخول ، فلم يؤد بهن ذلك بعد ـ إلى اكتشاف أعماقهن والالتفات إليها التفاتًا جديًّا ، التفاتًا لا يصرفه الجرى وراء الحرص على اجتذاب العيون ومباراة الأخريات فى ذلك المسعى السطحى الوقتى الذى يستدعى باستمرار مع تقدم العمر ـ المزيد من القلق والجهد والتكلف والكلفة ! وربما تغير ذلك فى المستقبل مع اطمئنان الإناث إلى وضعهن الذى ما يزال جديدًا ؛ والذى يتيح

---

(*) المال فى ١٨ /٤/٢٠١٢

لهـن فـرص الإسراع فى العنـاد والتحـدى والاسـتخفاف بقيمـة الأسرة والاستهانة بما عليهن للوفـاء بحقـوق الأولاد الـصغار .. وهـو مـا أدى إلى صيرورة الزيجات الآن هشة ضـعيفة التماسـك لا يبكـى عليهـا طرفاهـا ولا يروعهما إنهاؤها . وهذا نوع من الخلل عارض فى المجتمع .. لأنه إن اسـتمر يؤدى إلى انحلال المجتمعات وانهيار الحضارة القائمة حتى الآن على الأسرة والزيجات .

وإذا كانت الشابة تميل بفطرتها إلى الشاب ، فإن أعرافنا تتجاهل الفطرة، ولا ترى بأسًا فى أن يبنى الكهل أو الشيخ بالشابة أو المراهقـة إن كـان عنـده لين العيش الذى ليس لدى الشاب .. وهو حـل نفعـى بـشرى لا يخلـو مـن ضرر أو خطر تنكره الطبيعة ؛ ويأسى به وله الزوجان مع الوقت حتمًا . ومن اللاَّفت أن يحدث ذلك مـن آدمـى ذى وعـى واختيـار وإرادة يتحـدى بهـا الفطرة ويتجاوز أحكامها إلى ما يتصور أنه الألـين أو الأشـهى أو الأحـسن والأنفع ، مع أن نجاح هذا التصور قصير العمر ، يجترئ عليه الآدمى ما دام ذلك قابلاً للتكرار وإعادة متعة وقتية تساوى فى رأيه المجازفة مـن أجلهـا .. ويبدو أن ماضينا أو حاضرنا يتابع ويتبع فى معظم تـصرفاتنا هـذه الـسياسة الانتهازية ؛ ولا يريد الإنسان أن يتحول عنهـا ؛ لأنـه يـدين لهـا بالقليـل أو الكثير من ترقيه وتطوره وحضاراته .. وقد جـرب أن انتـصاره عـلى ظـاهر الفطرة يقرب بينه وبين بعض الثـدييات ؛ عـلى حـين أن اسـتخدامه لوعيـه وإرادته واختياراته يميزه عليها تمييزًا تتسع بـه المسافة بينهـا وبينـه بـاطراد واستمرار. وهذه الميزات فى تركيبهـا ـ أصـالة ـ امتزاجـات النفـع والـضرر واحتمالات الصواب والخطأ على نحـو دائـم دوام النـوع الإنـسانى بتركيبـه الذى عرفناه من ماضيه وحاضره .. ونسب هذا التركيب تختلـف تفاصـيلها

باختلاف الأفراد وأحوالهم ؛ وإن تكن متشابهة فى مجموعهم وإجمالهم .. وربما كان فى هذا الاختلاف بعض أسباب اختلاف حظوظ ومقادير البشر ، وتفسيرٌ للهفة الإنسان إلى معرفة حظه مقدمًا ، وتفسيرٌ لتفاؤله وتشاؤمه فى تعلقه بأشياء أو أشخاص ـ أو نفوره من أشياء أو أشخاص ، وتعرضه لما يدعوه للإحساس بالقلق على من يجب وما يجب ، وقلة اطمئنانه لما فى الغيب من المفاجآت . وهو ما يدعو الآدمى إلى التدين أو ما يشبه التدين لتسكين النفس وإيكال مخاوفها إلى عناية جهة أخرى سواها يدين لها الآدمى بقدر من الطاعة مقابل حمايتها إياه من خوف الأغيار والأخطار التى ليس لها حصر .

وقد لوحظ أن الشعور بالرغبة فى التدين يسترخى حين يسود المجتمع الرخاء والأمان ، ويشتد فى أوقات الضيق والأزمات والقلاقل والفتن ، كما أن الشعور بتلك الرغبة أكثر ظهورًا فى الإناث منه فى الذكور وأشد لديهن إمعانًا فى الخيال والوهم .. وربما كان ذلك ترجمةً رمزيةً للأسرار الكونية التى خصت بها الأنثى فى سهرها الواضح الغامض على بقاء الإنسان ودورها الإرادى واللا إرادى فى وجود الأسرة والمحافظة على استمرار وجودها .. وليس كل ما تأتيه الإناث من الاهتمام بالمظهر وإبداء المحاسن ومن الشوق والتكلف للنعومة والفطرية ـ ليس كله نزقًا وخفة ، إذ وراءه إحساسهن بتلك الأسرار الكونية التى لا يفطن إليها غالب الذكور .. إذ لا يحسب هؤلاء حساب أن الكون أو نواميسه لا تلتزم بما يلزم الآدمى من الأصول والأعراف والأخلاق .

من تراب الطريق (٦٤٧)

# عواطف الإناث (*)

## (٣)

وفى نظر الكون ـ إن صح هذا التعبير ـ تبدو الإناث أثقل مسئولية وأعباء دائمة من الذكور ، ومقابل ذلك وتخفيفًا عليهن أذن لهذه فى المبالغة فى الالتفات إلى أجسادهن وحركاتهن وزينتهن ؛ وفى الإصغاء للعواطف والإعراض عن الإغراق فى الانفراد والعزلة للتأمل والإمعان فى التفكير والبحث فى التجريب فضلاً عن الإغراق فى الأعمال البدنية الشاقة التى يمارسها الذكور بكفاءة أكثر نظرًا لتكوينهم البدنى .

وفى أيامنا هذه التى أتيحت فيها للإناث كل صور ومراحل التعليم التى أتيحت للذكور وساهمن تقريبًا فى كل الأعمال والمهام والمسئوليات التى يضطلع بها الذكور ـ ما زال الإناث يحملن خصائصهن التى أشرنا إليها ولم يقلعن إلا نادرًا عن أن يكنّ زوجات ووالدات وأمهات أسر ومحبات ومحبوبات .

ولأن معظم الإناث لا يطقن التأمل وتقليب النظر .. لا يفطن إلى اختلاف مستويات عمق عواطف الأنثى ، ويحملن العاطفة شديدة العمق محمل العاطفة السطحية العادية المألوفة ، ويخلعن عليها نفس الأسماء والأوصاف فى حكمهن على تصرفات وسلوك الأخريات . ولا يبالين بما فى

---

(*) المال فى ١٩ /٤/ ٢٠١٢

ذلك من ظلم وقسوة ـ مستندات إلى الأعراف والأخلاق ومستجيبات إلى مألوفهن من الخفة والإسراع فى الملامة .

وهذا أمر يكاد يكون غالبًا فى كل الجماعات ، ويندرج تحت ما يسمى بالقالة تارة أو بالرأى العام تارة أخرى .. ويتناقل أو ينتشر وقد ينتقل لعلة أو أخرى عبر التاريخ فتردده الأجيال على أنه واقع قديم بقى أمثولة خلال العصور بعد هلاك أطرافه .. وقد يستخدمه مذهب أو عقيدة دليلا على صحته وتأييده لدعوته فيزيد فى ثبوت ذلك الواقع الذى ربما كانت قد أذاعته القالة فى حينه أو حينها . وهذا شأن معظم ما مع البشر من ماضيهم الطويل فى نظرهم .. هذا الماضى الذى قد تحدث عنه وسجله بحسب قدرتهم وظروفهم ـ مؤرخوهم وكتابهم ووثائقهم ودعاتهم الذين يتبادلون فيما بينهم ذكر المأثورات وأخبار القدماء .. ونحن فى حاضرنا لا نختلف كثيرًا عن سابقينا .. فمعلوماتنا وأفكارنا وآراؤنا عن الواقع فى عالمنا تتحكم فيها القالة والشائعة وأنباء الصحف والإذاعات التى تتناقض مصادرها ورؤية ناشريها ومصالح الجهة التى يعملون بها أو لأجلها .. كما تتحكم فيها مؤلفات الكتاب الذين قد يتناقضون فى تصوير حقيقة أو شخصية أو حرب معينة ـ تبعًا لاختلاف مصالحهم أو مصادرهم .. فإيماننا بما معنا ـ وليس علمنا ـ هو الذى يقودنا فى نهاية الأمر . لأن الإيمان نهاية ما ليس له نهاية .. وينبغى أن يستريح عقل الآدمى المحدود بظروفه من دورانه داخلها لكى يعود بأمل جديد فى ظروف جديدة . إذ بين العودة إلى الدوران ثم إلى الراحة ـ يكتسب عقل الآدمى أو وعيه اتساعًا فى اتجاه ما وعمقًا فى إدراك شىء ما ويخطو خطى فى طريق نموّه وتطوره المقدر له ذلك القدر المحكوم بالمكان

والزمان على الدوام .. فحياة الحىّ عَدْوٌ يشبه سباق التتابع حيث الراية تنتقل من عدّاء إلى زميل ينتظر مجيئه ليتسلمها منه فى لحظة .. وهكذا إلى غير نهاية معروفة مقدمًا .. ثم إن كلاً منا يتسلم حياته قبل أن يعرفها أو يفهمها .. ولا يعرف أو يفهم شيئًا عنها إلاّ إذا استمر للأجل المكتوب له .. وهو لا يستطيع أن يرفضها قبل مجيئه البتة .. لأنه يدفع إليها دفعًا قبل أن يعى ذاته . فما نتخيل أنه حكمنا عليها أو لها مجرد مجاز وتشبيه .. لأنه من لاحق على سابق ، ومن مصنوع على صانع ، أو ما يقرب من ذلك .. وهو من أفاعيل المخيلة التى لا تتقيد بزمان أو مكان فى عملها .. هذه المخيلة التى تعيننا على أن نربط حاضرنا بماضينا وبمستقبلنا كما نخالها .

ثم إن تلك العاطفة شديدة العمق لدى الأنثى ، لا تكاد ترى فى الوجود شيئًا يهمها سوى ضرورة إشباعها واستيلائها على مرغوبها .. وتبدو خالية من الإشفاق مجردة من الرحمة قاسية قسوة متطرفة عنيدة لا ينجو من قسوتها من تعشق وتهوى ، بل لعله يستحث عنادها وثورتها عليه التى لا تعرف حدودًا إذا رفضها واستعصى عليها أو استعصم ! مثلما فعلت فيدرا بابن زوجها لقاء رفضه ، ومثلما صنعت امرأة العزيز انتقامًا من يوسف عليه السلام إزاء امتناعه واستعصامه وصده !

* * *